مقدمة

سيظل الشعر فن العربية الأول ، مهما تعاقبت عليه التغيرات ، أو تبدلت نظرة الجمهور له من القداسة إلى الشك، ومن الإعجاب إلى الإهمال. ولقد مر الشعر العربي بمراحل وتغيرات جوهرية في مفهوم الشعر ذاته، نالت كثيراً من مفاهيم الوزن والإيقاع؛ مما أدى إلى تداخله مع النثر أحياناً، حتى صرنا نسمع عن "قصيدة النثر" .

ولقد صمدت الصورة في وجه تلك التغيرات، بوصفها من أبرز سمات الشعر. ولكنها تطورت تعقيداً وتركيباً، كما تطورت – كذلك – من حيث المصادر والآليات. علي أن هذا التطور لا يمس جوهرها ولا أهميتها ، وإن احتاجت إيضاحات شتى ، ومحاولات متعددة للوصول إلى سر جمالها

وهذا العمل يطمح إلى إلقاء الضوء على الصورة والموسيقى في شعر "بلند الحيدري" ، بوصفهما من أبرز عناصر الشعر، وبخاصة شعر التفعيلة. هذا بالإضافة إلى دورهما في تمييز الشعر عن غيره من الفنون الأخرى ، ولكونهما من أرقى درجات الإجادة الشعرية. وقد جاء اختيار الدراسة الفنية – منهجاً – إيماناً بأنها من أنسب المسالك لدراسة الصورة والموسيقى ، فضلاً عن أنها – أي الدراسة الفنية – تتسع للاستفادة من المناهج الأخرى .

كما يطمح العمل إلى أن يكون خطوة في طريق إزالة الغبن عن الشاعر العراقي الكبير "بلند الحيدري"، الذي كان رائداً من رواد شعر التفعيلة ، لكنه لم ينل ما يستحقه بين زملائه ،على الرغم من كونه نموذجاً صالحاً للدراسة ؛ فقد مر بظروف تجعل منه شاهد عصر على الأدب العربي في هذه الحقبة الحافلة ، وإن لم تكن قامته كشاهد عدل ، لكنه في النهاية درجة لون في لوحة ، أو خيط في نسيج . ولقد ظهر هذا الغبن جلياً في ندرة ما كُتب عنه ،

وفي تعذُّر الحصول على هذه الكتابات. وأوضح مثال على ذلك أن الباحث قد بذل قصارى جهده – في حدود إمكاناته المتواضعة – للحصول على كتاب "بلند الحيدري: اغتراب الورد " [1] ، ولكن ذلك الجهد ، الذي استمر ثلاث سنوات ، قد جاء دون طائل ، علاوة على تعذر الحصول على الكتب والمراجع المشهورة .بالإضافة إلى أن معظم أخبار "بلند" وآرائه قد تم الحصول عليها من خلال الصحف والدوريات ، علاوة على أن أغلبها قد كُتب بعد وفاته.

وقد جاء هذا العمل في تمهيد أوجز الحديث عن حياة الشاعر و تجربته الشعرية ، ثم فصل يتحدث عن الصورة، ومكوناتها عنده ، وقد اشتمل على أربعة مباحث عن الصورة التراثية ،والواقعية ،والمجازية ، والقصيدة المرئية . ثم جاء الفصل الثاني يتناول الموسيقى ، وقد اشتمل علي إحصاء بحور الشعر عنده ، ودراسة أبرز هذه البحور في تجربته الشعرية ، ثم دراسة بعض الظواهر المؤثرة أو المتأثرة بالموسيقى .

وقد حاولت – قدر طاقتي المتواضعة – الاعتماد علي الذائقة الشخصية ، التي ارتوت من بعض المنابع النقدية .وقد يؤخذ على العمل الإكثار من الشواهد ، ولكن إذا تم حساب نسبة هذه الشواهد مقارنة بنتاجه الشعري مكتملا ، فسوف يتضح أن هذه الشواهد ليست بالكثرة التي تدعو إلى الانتقاد .

---

(١) صدر عن مؤتمر أصيلة التاسع عشر بالمغرب عام ١٩٩٧ .

تمهيد

بلند الحيدري ، أحد رواد الشعر العربي الحديث ، ولد في السادس والعشرين من سبتمبر عام ألف وتسعمائة وستة وعشرين في مدينة السليمانية بالعراق ، ينحدر من أسرة كردية عريقة تنتمي للطبقة الأرستقراطية ، وكانت تلك الأسرة شديدة الوجاهة والثراء ، عُرف عنها شغف أهلها بالعلم والفن والأدب[١] .

كان أبوه ضابطاً في الجيش ، وخاله داود الحيدري وزيراً للعدل ، ومن أسرتة جمال الحيدري ، الشيوعي الذي قُتل عام ١٩٦٣ .

بدأ الحيدري محاولاته الشعرية وهو في المرحلة الابتدائية، وكان يكتب باللغة الكردية ، وتعرف على الشاعر الكردي "عبد الله كوران" الذي كان يكتب بالكردية والعربية أحياناً أخرى . بعد ذلك انتقل بلند إلى أربيل ، ثم إلى بغداد وذلك بحكم عمل والده في الجيش ،وهناك تحول للقراءة والكتابة باللغة العربية ، وتعرف على الشاعر العراقي الكبير "معروف الرصافي" والذي كان يسكن بمدينة الفلوجا ، وكان زوج عمة بلند محافظاً لها ، وقد نصح الرصافي بلند أن يحفظ شعر المتنبي [٢] .

ولما بلغ سن الشباب انضم للحزب الشيوعي العراقي متمرداً على طبقته البرجوازية ، ثم اختلف مع والده وهجر أسرته [٣] : (كنت متمرداً منذ نشأتي وفي يوم زارني شاعر من الشعراء كان فقيراً إلى حد مدقع وبوهيمي جداً ، ودخل قصر عائلتي وكان خجلاً من حذائه الممزق الذي حاول إخفاءه تحت الكرسي ، وفجأه وجدته يثور في وجهي ويقول : كيف يكون بإمكانك أن تكتب شعراً وأنت في هذا القصر الفخم ؟!

---

(١) جريدة البيان العدد الصادر بتاريخ ١٩٩٩/٤/٢٧ .

(٢) مقابلة مع مجلة العربي العدد (٣٦٨) يوليو "تموز" ١٩٨٩ صـ ٩٨ ، والأهرام الدولي العدد الصادر بتاريخ ١٩٩٦/٨/١٢ .

(٣) مجلة الطريق العدد الخامس سبتمبر "أيلول" ١٩٩٦ صـ ١٥٣ .

obeikandi.com

وأسلمتني هذه الصرخة إلى التمرد على القصر وعائلتي وسيارتي ، لأتشرد مع الشعراء الفقراء في الشوارع ، نجوع معاً وننام معاً في المقاهي وعلى مصاطب نهر دجلة ، وطالت المعاناة لفترة ، وكان سلوكي هذا قد عقد علاقتي بالعائلة) [١] .

ولذلك نعته سعدي يوسف بالابن الضال، حيث يقول عنه : (بلند الحيدري الابن الضال لأسرة كردية عريقة اندمجت وتشظت بواقع السياسة في بلد يفور بتعقيدات هذا الواقع ... هو الابن الضال لأنه رفض منذ البداية المبكرة أن يمضي في السبيل المفترض لابن صالح يمكن أن يرتقي درجات السلم واحدة بعد أخرى حيناً ووثباً حيناً آخر حتى يبلغ المكانة المرجوة) [٢] .

بعد ذلك اشترك بلند مع مجموعة من الشباب ، منهم جواد سليم ، وفؤاد التكرلي ، وجبرا إبراهيم جبرا وغيرهم، فأسسوا جماعة أدبية فنية باسم "الوقت الضائع" . وافتتحوا مقهي أدبياً في بغداد هو المقهى الأول من نوعه في الشرق الأوسط؛ حيث كانوا ينشدون وضع أسس فنية لحداثة عربية متأثرين بالغرب وبالأفكار الوجودية [٣] .

ولكن العيون التى كانت تتربص بالمثقفين العراقيين في تلك السنوات وقفت حجر عثرة ضد ذلك ، فأُغلق المقهى بأوامر من السلطة [٤].

ويظل آل الحيدري يراقبون عن بعد هذا الابن الضال المتضور جوعاً باختياره ، ودبروا له عن طريق خاله الوزير "داود الحيدري" عملاً في شركة سباق الخيل [٥] .

ويبدو أن مزاجه قد رافق التمرد ؛ إذ قرر أن يخوض الانتخابات ولكنه عدل عن الفكرة ورجع عن القرار لتضاؤل نسبة الفوز ، ويحكي هو عن ذلك فيقول : (إن خاله داود أخبره أن "عبد الإله " الوصي على العرش يطلب لقاءه...

وبعد أن جلست معه ... قال لي : إن داود أخبره أنني رشحت نفسي في الانتخابات ، فقلت له : كان هذا هدفي ولكنني ... تأكدت أنني لن أستطيع الفوز...

---

(١) مجلة الإذاعة والتليفزيون العدد الصادر ١٩٩٥/١/٢٨ صـ ٣٤، ٣٥ .

(٢) مجلة الوسط العدد ٢٣٧ الصادر بتاريخ ١٩٩٦/٨/١٢ صـ ٥٢، ٥٣ .

(٣) مجلة الطريق العدد (٥) سبتمبر "أيلول" ١٩٩٦ صـ ١٥٣ .

(٤) مجلة الوسط العدد (٢٣٧) الصادر بتاريخ ١٩٩٦/٨/١٢ صـ ٥١، ٥٢ .

(٥) السابق صـ ٥٢، ٥٣ .

فنظر في وجهي لحظة ثم قال : ترشح نفسك ونحن نسد الباب ، فأخذتني الجرأة وقلت : وبأي لسان سأتكلم بلسان الشيوعيين أم بلسانك يا سيدي ؟!)[١]

وفي عام ١٩٦٣ يقع انقلاب دموي يطيح بثورة يوليو "تموز" ويتم اعتقال بلند؛ نظراً لمواقفه الرافضة للانقلاب ،ويُسجن ثم ينجو من الموت بأعجوبة ، حيث يحكي عن ذلك فيقول : (تدخلت ظروف متعددة في حياتي أوقعتني في أيام سود منها ذلك اليوم الذي لا يزال خالداً في ذاكرتي... والذي أثر فيه موقفي السياسي على حياتي ، حيث أُخذت عنوة من بيتي في انقلاب ١٩٦٣ إلى دار الإذاعة لينفذ فيّ حكم الإعدام ، غير أن مصادفة عجيبة حدثت ، فقد كان عدد الذين سوف ينفذ فيهم حكم الإعدام من الكثرة بحيث امتلأت بهم الغرف ، لذلك رأى عبد السلام عارف أن يأخذوني مع عدد آخر إلى أي مكان آخر لتنفيذ الأحكام، التى لم تنفذ ، وهكذا نجوت بالصدفة من هذا الحكم ... وتركت بغداد في نهاية ١٩٦٣ وعشت قرابة خمسة عشر عاماً في بيروت ثم ذهبت إلى لندن [٢] .

وقد ظل في لندن حتى مات في السادس من أغسطس عام ١٩٩٦ أثناء إجراء عملية بالقلب. وقد كان بلند "وجهاً لامعاً في حركة الشعر الجديد ، حيث ينتمي إلى جيل الريادة الذي يضم بدر شاكر السياب ، ونازك الملائكة ، وعبد الوهاب البياتي . وقد امتازت تجربته الشعرية ببحثه الدائم عن أشكال وأبنية ومناخات عصرية للقصيدة العربية ، تعبر بعقلانية واعية وبلغة دمثة عن معاناة الإنسان البسيط في واقع مرير" [٣] .

كان أول عمل شعري صدر له ديوان "خفقة الطين" [٤] . ويقول عن بداية تجربته الشعرية : " عقب الحرب العالمية نشأ واقع اجتماعي جديد أشعرنا بأن واقع

---

(١) مجلة الإذاعة والتليفزيون العدد الصادر ١٩٩٥/١/٢٨ صـ ٣٤، ٣٥ .

(٢) السابق نفسه .

(٣) مملكة الشعراء ، نبيل فرج ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨صـ ٣٧ .

(٤) صدرت طبعته الأولي عن دار الوقت الضائع ، بغداد ١٩٤٦ .

الأرض في العراق قد تغير ... ومنذ أوائل الأربعينيات كنت أحاول أن أجد مناخاً جديداً للقصيدة يوافق تجربتنا المعاصرة ويعبر عنها" [١].

والمثير للدهشة أنه لا يُذكر ضمن رواد الشعر الحديث ، حتى إن شاعراً من أرباب هذا الشعر يتعجب لذلك ويقول :" لا أدري حتى الآن لماذا اعتاد الذين يتكلمون عن حركة التجديد الشعري في العراق – بدءا من أوائل الخمسينيات – أن يتوقفوا عند أسماء نازك الملائكة وبدر شاكر السياب و عبد الوهاب البياتي وأن يسقطوا – عمداً أو سهواً – اسم بلند الحيدري ، وكأنه لم يشارك في صنع اللحظة التاريخية التى شهدت ميلاد قصيدة الشعر الجديد ، الشعر الحر ،شعر التفعيلة ، بل كانت دواوينه وقصائده الأولى – كما كانت قصائد رفاقه الثلاثة عمراً ودراسة وإبداعاً – إرهاصا بهذا التغير العنيف الذي سيكون له آثاره الخطيرة على مسيرة الشعر العربي في النصف الثاني من القرن العشرين . والغريب في الأمر أن هؤلاء الرفاق – الذين اصطلح على تسميتهم بالرواد الثلاثة– كانوا أكثر الناس وعياً بجوهر هذا الشاعر وحقيقة إبداعه ومدى تميزه" [٢]. فالسياب يقول عنه :" هناك عدد من الشعراء أكنّ لهم كل التقدير والإعجاب ، وعلى رأسهم بلند الحيدري ، الذي كان ديوانه "خفقة الطين" أول ديوان صدر من ثلاثة دواوين كانت فاتحة عهد جديد في الشعر العراقي ، هي "عاشقة الليل" لنازك الملائكة و"أزهار ذابلة" للسياب"[٣] .

والغريب أن يُهاجَم بلند بعد وفاته ، ويكون الهجوم من منطلق عقائدي وليس أدبياً ،فقد "تم تصنيفه على أنه رجل كردي له انتماء أصيل هو ورفاقه ...

يسعون منذ بداية الأربعينيات نحو الانفصال الفكري والأدبي والعقائدي عن العروبة ، والذي أثار هذه القضية شاعر تركي هو "عزت هيجد" في ذكرى رحيل بلند ، لكن هذا الرأي وجد هوى عند الكثيرين من الذين يفكرون بخناجرهم ، شاعر عراقي آخر

---

(١) مجلة هنا لندن عدد يونيو ١٩٨٥ مقابلة الشهر صـ ٦-٨ .

(٢) جريدة الأهرام ، مقال فاروق شوشة ، العدد الصدر بتاريخ ١٩٩٩/١٠/١٠ .

(٣) من مقدمة ديوان خفقة الطين ضمن الأعمال الكاملة ، دار سعاد الصباح الطبعة الأولي ١٩٩٣صـ ١٣وهو منقول عن جريدة الأسبوع البغدادية عام ١٩٥٣ .

هو "بدر الدين الشيخلي" ... قال عن بلند : إنه منافق نازي كبير خرج من جداول عروبتنا ومن سياج نظامنا ، إنه يسجن قارئه في قائمة من المثاليات و يترنح هو في خمر الفساد ، ويستشهد الشيخلي بديوانه " خفقة الطين " ويعتبره شعراً شعوبياً. والغريب أن يأتي الدفاع في هذه القضية من شاعر فرنسي هو " فرانسوا ليندو" ، الذي يقول عن بلند :" هو شاعر عربي قومي لم يتنازل عن أحلام جيل تربى في ظل الالتزام بقضية الوطن الأكبر بعيداً عن المحليات " [١].

ولعله مما ينصف بلند بعض الإنصاف ما قاله الدكتور جابر عصفور :" لقد حفر بلند في الوعي والذاكرة حداثته الشعرية ، وجسّد بشعره وسلوكه نموذجاً للشاعر الذي يستنزل الغيث وينسج خيوط الفجر" [٢].

كما قال عيسى مخلوف : إنه يجب " إعادة النظر في مرحلة الريادة العربية التى لم تقرأ بعد قراءة كاشفة وحاسمة ... لأن بلند وتجربته الشعرية لم ينصفا"[٣].

وبدءا من ديوانه الأول زرع إحساسه بالخيبة وضياع الأماني والتعب ، وقد بدأ – شأنه شأن زملائه الرواد – تحت عباءة الرومانسية ، ويبدو أن ذلك كان ناتجاً عن ظروفه الخاصة ؛ بعد اصطدامه بالواقع السياسي والاجتماعي ، وخروجه علي تقاليد الأسرة . ومن دلائل تأثره بالرومانسية في هذا الديوان، بحثه عن الحب المثالى ، كما في قصيدة "أهواكِ" [٤] ، والحنين للذكريات، كما في قصيدَتْي "صدى خريف"[٥] و " حدثيني " [٦] والمعاناة والألم ، كما في قصيدة "نشيج" [١] وحدّة العاطفة وقوتها كما في قصيدة "انتظار" [٢] ، التى يقول فيها :

---

(١) جريدة الوفد ، تقرير لنادر ناشد ، العدد الصادر بتاريخ ١٩٩٨/١١/٢٤ .

(٢) جريدة الشرق الأوسط العدد الصادر بتاريخ ١٩٩٧/٨/٧ .

(٣) المرجع نفسه .

(٤) الأعمال الكاملة صـ ٢٩ .

(٥) الأعمال الكاملة صـ ٣١ .

(٦) المصدر السابق صـ ٧١ .

ولعلها نسيت حديث الأمس في همساتها

رباه

إن الشك يقتلني بدون ترحّم

فبأي صدر فاجر الشهوات مشبوب الدم

تقضي المساء الآن بين تهتّك وتأثّم

وأخالها نشوى يسيّرها المجون ولا تعي

نشوى تُدنس جسمها في مخدع

وتهينه في مخدع

وتذلّ حباً طاهراً قدّست فيه توجعي

ومن السمات الرومانسية أيضاً الهروب إلى عالم الخيال، على نحو ما تجسدت في ديوانه الأول ، كما في قصيدة "ربيع شقية" [٣] ، والتى يقول فيها :

دنيا الخيال أرقّ من دنيا صبا

خنقت كوارثها سني أيامها

وتظهر هذه السمات الرومانسية وغيرها في معظم قصائد ذلك الديوان ، والتى بلغت سبعاً وأربعين قصيدة ، ولذلك قال عنه رياض نجيب الريس : " لعل بلند الحيدري آخر الشعراء الرومنطيقيين الحقيقيين وأكفأهم"[٤].

ولقد شهدت العراق والأمة العربية خلال سنوات الحرب العالمية الثانية وما تلاها تحولاً خطيراً وولادة جديدة؛ لأن هذه الحرب كانت الشرارة الفاعلة التي أوقدت الوعي السياسي بين مختلف طبقات الشعب العربي ، التي أدركت أن طموحها في التحرر الوطني والاستقلال والتوق إلى حياة أفضل لن يتم لها إلا بالصدام المباشر مع الحاكمين ومن ورائهم أسيادهم البريطانيون ... وتقوم ثورة ١٩٤١بالعراق ولكنها

---

(١) المصدر السابق صـ ٣٥ .

(٢) المصدر السابق صـ٨٧ .

(٣) المصدر السابق صـ ٧٩ .

(٤) الفترة الحرجة ، نقد في أدب الستينيات ، رياض نجيب الريس ، رياض الريس للكتب والنشر لندن – قبرص ط ٢ عام ١٩٩٢ صـ ١٤٥.

لم يُكتب لها النجاح ... وتستمر الأحداث في الاشتعال وتهز الجماهير العراقية أركان الدولة في الوثبة التى عُرفت في تاريخ العراق باسم وثبة عام ١٩٤٨ ... ثم تحدث مذبحة الجسر التى راح ضحيتها العديد من المواطنين[١] وتتابعت الأحداث وقامت الحرب بين العرب وإسرائيل عام ١٩٤٨ ، وبعد سنوات قليلة تقوم الثورة بمصر عام ١٩٥٢ ، ويستمر غليان الثورة الشعبية في العراق ، فيلجأ حكامها إلى تكبيل العراق بأغلال جديدة أهمها قيام حلف بغداد العسكري[٢] .

هذا جزء من حركة الواقع العربي الجديد ، واقع ما بعد الحرب العالمية الثانية التي أدت إلى انتصار الاشتراكية وتطور الوعي السياسي ونشاط الحياة الحزبية ، مما دفع العديد من المثقفين العراقيين إلى أن يكونوا منغمرين أو قريبين من الأحزاب الوطنية أو القومية ، حتى إن السياسة صارت جزءاً من هموم الشاعر العراقي ، واحتوت خيرة الوجوه الأدبية – ومن بينها بلند بالطبع – التقوا جميعاً من أجل هدف واحد هو الثورة والخلاص من حكم العملاء الذين يكبلون الشعب وينهبون خيراته. ولقد ترك هذا الواقع الجديد أثره على شعراء هذه الفترة، فـ"نتيجة لهذا الواقع الجديد صار الأديب يتلقف ما يقع بين يديه من نتاج أدباء العالم والمدافعين عن الإنسان ،مما كان يترجم في سوريا ومصر ويصل إلى العراق سراً .

ولأن الشاعر المعاصر ملتزم عموماً ، فهو إما أن يكون عضواً في حزب أو قريباً من أي أيدلوجية حزب آخر ، صار يدرك أن الخلاص ليس خلاصاً فردياً، وإنما هو طريق جماعي . ولقد انتقل هذا الوعي الجديد وتسرب إلى العمل الأدبي نفسه .

ومن هنا صارت النزعة الرومانسية في الشعر أسراً وقيداً لابد للشاعر أن يكسره . وصار الشاعر يدرك – بوعيه الجديد– أن الشعر ليس تعبيراً عن حزن أو فرح فردي ، و أن الفن ليس ضيقاً إلى هذا الحد ، بل هو بما فيه من سعة ورحابة جدير بأن

---

(١) يُنظر : من تاريخ الحركة الثورية المعاصرة في العراق ، سعاد خيري ، بغداد عام ١٩٧٤صـ ١٦٠- ١٨٢ .

(٢) السابق .

يعنى بقضايا الإنسان والواقع والأحداث ، وأن الشعر إذا أريد له أن يتجدد ويخلد ، فإن ذلك يتم بتجديد المضامين إضافة إلى الأشكال "[١] .

وإذا كانت المتغيرات السياسية فيما بعد عام ١٩٥٢، واشتداد الوعي الجماهيري للمشكلات الاجتماعية والوطنية والقومية، ونمو النشاط الحزبي نمواً كبيراً وارتباط أغلب الشعراء العراقيين به ، ثم تطور الحياة الثقافية بفعل الاطلاع على الآداب الأجنبية ما وصل منها إلى العراق مترجماً أو قرأه الأديب في لغته الأصلية ، إذا كان هذا كله قد أسهم في وضوح رؤية الأديب للواقع ووقوفه موقفاً منتمياً وفاعلاً من الأحداث ، وتحدد لذلك المسار الملتزم للقصيدة الجديدة [٢] .

فإنه قد حدث تنازع لدى الشاعر ما بين الرومانسية والواقعية وبدأت الرومانسية تختفي ، ولكنه اختفاء غير تام .

ووسط كل ما سبق عاش بلند وعانى من الواقع الأليم للأمة العربية ووقف يؤيد حرية التعبير ويدافع عن الديمقراطية والتعددية وحق الإنسان في التمسك بأفكاره وعدم التخلي عنها مهما كان الثمن . ولكنه يجابه القهر ، الذي سيطر على إحساسه ومشاعره في معظم تجربته الشعرية . ذلك القهر الذي عانى منه وكان متأصلاً راسخاً في حياته بداية من والده الذي كان ينهره منذ صغره ، حتى إنه لم ينس ذلك وهو في الرابعة والستين من سني العمر :

صوت أبي
يصرخ بي
يتدحرج بي .. أخطأت .. لقد أخطأت
وأحسست به يكبر سوطًا
موتاً
مملوءاً بالنقمة والرّعبِ

---

(١) دير الملاك ، دراسة نقدية للظواهر الفنية في الشعر العراقي المعاصر، د/ محسن أطيمش، الجمهورية العراقية ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام سلسلة دراسات (٣٠١) عام ١٩٨٢صـ١٨ .

(٢) يُنظر : معالم جديدة في أدبنا المعاصر ، فاضل تامر ، دار الحرية للطباعة ، بغداد عام ١٩٧٦ صـ ١٨٨ .

.....

فأبي لن يسمح لي إلا أن أبكي
وإلا أن أصمت حتى الموت
ولا أتكلمْ [١]

ومروراً بظروف خاصة يحكي هو عنها ، ومنها ما قاله عن أخيه صفاء الحيدري، الشاعر الذي كان يكبره بخمس سنوات ، حيث يحكي أنه وصله – أي بلند – ديوان شعر من أخيه صفاء عام ١٩٨٥ ، وكان عنوان هذا الديوان " قادسية صدام" وقد استغرب هذا الأمر ؛ لأن أخاه لا علاقة له بالسياسة مطلقاً .

فكيف يقوم بمثل هذا العمل ؟!

فأعاد إليه الديوان بتعليق صغير يقول له فيه : لم هذا الانتحار المشين يا صفاء ؟!

ويقول : " لم أسمع شيئاً عن أخي بعد ذلك فقد انقطعت أخباره عني ... حتى توفي. وقرأت مقالاً لأحد أصدقائه ... ذكر كيف أُلقي القبض على أخي بجريرة وشاية فضلاً عن أن أخي أودع السجن وعُذب ولم يطلق سراحه إلا بعد أن نفّذ طلبهم بأن يكتب ديواناً كاملاً في تحية الزعيم الرئيس ، وكانت معاناة كبيرة بعد ذلك فقد أغلق باب داره ... وظل يعاقر الخمر إلى أن قتل نفسه بها ، وكتبت مقالتي عنه ، عن هذا الذي قتلوه مرتين " [٢] .

وربما كان هذا القهر سبباً في أن يرتبط اسم بلند بالدفاع عن الحريات العامة في شعره ، والدفاع عن حرية الضمير وحرية الرأي ، والدعوة إلى الأخذ بالديمقراطية واحترام حقوق الإنسان ، حتى إنه ليقول : " إن مثقفينا يعانون من ضربين من القهر ؛ القهر المنظم الذي تفرضه السلطات الجائرة، حيث تترصد بدقة تنفيذ هذا القهر لكي لا يكون هناك من يريد أن يفكر أو يسأل الآخرين أن يفكروا معه ، وفي غير ما تلزمه الدولة أن يفكر فيه من أجلها . والنموذج المثال لمثل هذه الأنشطة هو نظام صدام حسين . أما النوع الثاني فهو القهر الممدود الذي اتسع ظله حتى شمل

---

(١) من قصيدة "النافذة العمياء" ، الأعمال الكاملة صـ ٦٨٥ ، وقد نشرت لأول مرة في الطبعة الأولي من الديوان الثامن "أبوب إلى البيت الضيق" ، دار رياض الريس ، لندن ١٩٩٠ .

(٢) مجلة الإذاعة والتليفزيون العدد الصادر بتاريخ ١٩٩٥/١/٢٨صـ٣٤-٣٥ .

obeikandl.com

الأمة كلها واتسعت سطوته وعظمت وتعددت ، فأحكم قبضته على أغلب مثقفينا وأخضعهم خضوعاً قاسياً لجبروته المتمرس " [١] .

ولهذا نجد معظم شعره يسيطر عليه الإحساس بالقهر واليأس والألم والمعاناة :

أمي تتمتم في صلاة
رباه . .
احفظ لي حياتي
أنا لا أريد سوى حياتي [٢]

هذا القهر الذي يجعل الأم تنسي أبناءها في موقف مهيب يذكّر –مع الفارق– بهول يوم القيامة [٣]. وحتى حين ينتقل من الذات والهم الفردي إلى الهم القومي نراه يسيطر عليه الإحساس بالقهر ، كما يتضح في قصيدَتْي " توبة يهوذا " [٤] و "اعترافات من عام ١٩٦١" [٥]. وذلك على سبيل المثال لا الحصر .

ولكن هذا الإحساس بالقهر يتخلله الحديث عن الفداء والتضحية ، وتقديم قربان الحرية ، والذي يؤدي إلى الحياة من خلال الموت .

يعبر بلند عن ذلك كله في شعره وفي أحاديثه الصحفية ، حتى حين سئل عن رأيه في قضية الإنسان العربي نراه يقول :" ليست قضية الإنسان العربي وإنما مأساته ، لذلك أنا أعتبر نفسي داعية من أجل حقوق الإنسان" [٦] ."وأعتقد أن مأساة الواقع العربي هي مأساة أكبر من الحروب ،ولكل شاعر همومه ،وهمومي أنا هي أن البحث عن ثورة هو الثورة الوحيدة في رأيي ، الثورة الوحيدة الحقيقية هي ثورة حقوق الإنسان ، هذه مهمتي أبحث عنها أيضاً علي المستوى الشخصي ، إنني أبحث عن

---

(١) الأهرام الدولي العدد الصادر بتاريخ ١٩٩٤/٣/٧ .

(٢) الأعمال الكاملة صـ٢٩٧ من قصيدة "عشرون الف قتيل" بالديوان الثالث .

(٣) سورة الحج آية (٢).

(٤) الأعمال الكاملة صـ ٣٠٩.

(٥) السابق صـ ٥٨٣.

(٦) جريدة الرأي العام العدد الصادر بتاريخ ١٩٨٧/٣/٢٩ .

العدالة والحرية في قصائدي . وأعتبر أن هاتين النقطتين أساسيتان لخلق الإنسان العربي الذي سيتجاوز كل المآسي بهما ، ولذلك عندما قال كسينجر عام ١٩٦٧ : (يجب أن نضع العالم العربي في حالة من الذهول بحيث لا يعرف أحد ما يقع في هذا العالم) . كان يعني بالذات إلغاء الديمقراطية وإلغاء الحرية وإلغاء دور المفكر في تعميق الوعي بمأساة الإنسان العربي ، ومن ثم أصبحت السياسة المثالية أن يتعامل السياسي العربي مع الواقع الآني . إذن يجب أن نبحث عن الجذور في المأساة ، وذلك بإعادة دور المفكر ودور الشاعر ودور الفنان في خلق التطلع اللازم لمستقبلنا العربي" [١] .

ولكن هناك محطة في تجربة بلند الشعرية لابد من الوقوف عندها ؛ لخصوصيتها وتميزها ، ألا وهي : الديوان القصيدة "حوار عبر الأبعاد الثلاثة "[٢]. والذي كان انعكاساً لقراءاته في الفلسفة ، وتأثره بمفهوم الحق عند "هيجل" ، إضافة إلى تأثره بمفهوم الچوقة في الأدب الإغريقي ، فيتحدث عن قتل الأب وثورة الإنسان ، مما أعطى القصيدة نوعاً من الغموض . وقد صدّر القصيدة بعبارة "ديستوفسكي" الشهيرة :" حذار.. حذار فإن قتل الأب أكبر جريمة في التاريخ" ، وعلى ذلك يتبادر في ذهن المتلقي أن الفكرة الرئيسة بمعناها الضيق هي قتل الابن لأبيه ، ولكن بإمعان النظر يتضح أن هذه الفكرة غير موجودة ، وإنما توجد فكرة أخرى قائمة عليها، وهي : أن قتل الأب يقصد به محاولة الانتصار عليه وتخطيه وتجاوزه ؛ حيث إن الصراع دائم بين الآباء والأبناء ؛ فالابن يريد أن يؤكد من خلال وجوده ولادة المستقبل الذي يحمل خصائص التطلع نحو الجديد الإيجابي ، وذلك بديلاً عن القديم البالى والعادات التي تحول دون التطور، والتى يمثلها الأب ، ثم تأتي الأم التي تقف مع ولدها ، وذلك كله من خلال البعد المأسوي في العلاقة القائمة بين الأم والابن والأب .

---

(١) الأهرام العدد الصادر ١٩٨٧/٢/١٩ .

(٢) صدرت طبعته الأولي عن وزارة الثقافة العراقية ، بغداد ١٩٧٢ ، وفي طبعة دار سعاد الصباح ورد خطأ أنه طبع عام ١٩٤٦ .

وعلى ما سبق فنحن أمام صراع بين تطلع الشاعر في الذات المعاصرة ، وتحرك الواقع المضاد ، هذا الصراع يقوم – من خلال القصيدة – بين البطل وآخرين عبر أصوات متضادة ، حيث يبدأ الشاعر بصوت البطل المتمرد على الأوضاع :

يا كلكم
يا غيبةَ الحاضرينْ
يا أنتم المارون كل لحظة ببيتي المنكفئ
الأضواءِ
والحاملون ليلي الثقيل في صمتكم المرائي
أنا .. هنا.. أموت من سنينْ
أزحف من سنينْ
خيطاً من الدماء بين الجرح والسكينْ (١)

ويقابل صوت هذا البطل صوت آخر لأناس يتهمونه بالجنون ، وربما يمثلون صوت اللامبالاة ، الذي لا يقدر على التمرد :

نم أيها المجنون ... نريد أن ننامْ
نم أيها اللعين ... نريد أن ننامْ
نريد أن يعتقنا الظلامْ (٢)

ويبدو أننا في محكمة تمثل الحياة ؛ حيث يتدخل صوت الشاعر الرافض للمأساة ، والذي يعلق عليها من خلال وصفه لتلك المحكمة الزائفة :

واللوحة مازالت ذات اللوحة منذ العهد
التركي
"العدل أساس الملك"
– ماذا ... ؟ !
"العدل أساس الملك"

---

(١) الأعمال الكاملة صـ ٤٧٣ .

(٢) السابق صـ٤٧٤ .

obeikandl.com

- صه ..لا تحك
- كذب ... كذب ... كذب ... كذب

الملك أساس العدل

أن تملك سكيناً . . تملك حقك في قتلي

- صه .. لا تحك
- ما أكذبهم ... ما ألعنهم [١]

ويتوزع صوت الشاعر من خلال القصيدة ، ولكنه كثيراً ما يختلط بصوت البطل :

ها أني

أتمزق بين اثنين

رجل يصمت في طفلٍ يسألْ [٢]

ثم يتم الاتفاق علي محاكمة هذا البطل من خلال التقاليد البالية ، والتي تسود المجتمع.

ويتضح الصراع بعناصره من خلال ثلاث چوقات ؛ چوقة نسائية تدافع عن حق الولد (البطل) في الحياة . وچوقة رجالية تمثل القيم **البالية** السائدة ، وهذه الچوقة تتعاطف مع الأب، وتناصره ضد ابنه الذي يحاول إلغاءه :

ماذا يبقى من أرضك إن ثار الأبناء على الآباء

ماذا يبقى من أمسك إن صار الحاضر نفياً

للأمس [٣] .

.....

إن كنت ستعفو فلماذا أوجدت الذنب [٤]

وأخيراً الچوقة المشتركة ، التي تحاول أن تصل إلى قاسم مشترك بين الچوقتين الرجالية والنسائية :

---

(١)الأعمال الكاملة صـ ٤٨١.

(٢)السابق صـ ٤٨٢ .

(٣) السابق صـ ٤٩٨.

(٤)الأعمال الكاملة صـ ٤٩٩.

obeikandl.com

ربنا ... ربنا ... ربنا
تعلم أننا لسنا من هؤلاء ولا من هؤلاء
وأننا وجهك في الرجاء
وأمرك في البقاء [١] .

ولكن هذه الچوقات الثلاث تعلق علي الأحداث من دون أن تغير منها شيئا، حيث تتم المحاكمة ، وتنتصر القيم السائدة والعادات والتقاليد البالية :

- ماذا قلتم وبم تفتون ؟
- فليعدم ... يعدم ... يعدم ... فليعدم
باسم الرب ... سيعدم
باسم الشعب ... سيعدم
باسم القانون [٢] .

ولكن في النهاية وبعد إعدام الابن يُشاهَد وجه امرأة محفوراً في جبل ، وفي عينيها نبعا ماء :

ورأينا الجسد العاري رغم الصقر الجائع
والريح الملعونة والليل الداجي،
رغم المسمار ورغم النار يتحول أرضاً
خضراء
وسمعنا صوتاً من أرضك يا رب [٣] .
.....
صوت امرأة قال :
ابني لم يشنق ... ابني ما مات [٤]

أي ينتصر الإنسان الجديد ، ويبعث حياة تطمح إلى الكمال ، ودفن التقاليد

---

(١) السابق صـ ٤٧٦.

(٢)السابق صـ ٤٨٤- ٤٨٥.

(٣) السابق صـ ٥٢٢-٥٢٣.

(٤)الأعمال الكاملة صـ ٥٢٣.

obeikandl.com

البالية والتخلف وشهود الزيف والقضاء على القوانين القاسية التي تحاصر الفرد المتطلع إلى النقاء .

ولعل ذلك الديوان ، الذي يعاني من عدم الوضوح ، أو الغموض ،الذي لا يصل إلى درجة التعقيد ، والذي نتج عن الرؤى والأفكار الفلسفية المتشابكة ، بالإضافة إلى استلهام المواقف الرمزية المتضادة ، التي تحيط الإنسان المعاصر ، المحاصر بالموروث المتخلف من التقاليد والقوانين والأنظمة .

لعله بذلك ينزع إلى مفهوم خاص للثورة ؛ هو تجاوز القديم البالى من الاعتقادات التي تحكم المجتمع ، والتطلع الحقيقي إلى حياة إنسانية مشرقة جديدة ، مما يعطيه خصوصية في الحديث عن الثورة العربية ورؤية الإنسان العربي ثائراً طامحاً إلى التغيير .

ولكن بلند في هذا الديوان – وكما يقول الدكتور صلاح فضل – قد " سفح الشعر من أجل الفكر ... ومع أنه يمتلك طاقة تشكيلية بارزة ... إلا أن هذه التجارب الشكلية لم تنجح لديه فلم يعد لتكرارها من بعد ، وأظن أنه قد أدرك بذكائه الإبداعي إخفاقها " [1] .

ونحن مع الدكتور فضل في النصف الأول من مقولته ، ولسنا معه في نصفها الآخر ؛ لأن تلك التجربة لم تخفق ، بل جاءت متفردة في ابتعاد الشاعر عن صوته الخاص ، وفي الصراع والتضاد والابتعاد عن الغنائية ، بل تميزت أيضاَ – وقت كتابتها – بتقديم مفهوم جديد للثورة ، وهو الثورة على البالى والمتخلف من القوانين والاعتقادات التي تحكم المجتمع ، مع تطلع لحياة إنسانية مشرقة .

وبعد هذا الحديث ، الذي طال ، عن ذلك الديوان المتميز من شعر بلند الحيدري نعود للحديث عن أواخر تجربته الشعرية ، التي سيطر عليها آلام الغربة واليأس، وغلّفها هاجس الموت، بالإضافة إلى الشعور بالقهر والمعاناة .

ولعله من المفيد ذكر بعض الآراء التي تتحدث عن هذا الشاعر ، وتعبّر عن

---

(١) جريدة الحياة ، العدد الصادر بتاريخ ١٩٩٧/٧/٢٩ ، وهو منقول عن كتابه : "تبرات الخطاب الشعري" ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٩٨صـ١٢٢-١٢٣ .

"اختياره للمهجر اللبناني قدحاً لزناد الهم النفسي والوطني والقومي في وجدانه ، وإذكاء لبقايا النيران المتوقدة التي حاول الطغيان العراقي ملاحقتها وإخمادها في كل مكان ... وكان شبحاً هائماً يمشي على جراحه النازفة ويحاول إخفاء مرارته وشعوره بالهزيمة في داخله ... البكاء النازف دماً في دواوين بلند الحيدري هو بعض أوجاع القومية الكردية المحكوم عليها بالشتات والتآمر عليها "[١] .

وقد اعتبر الكاتب البريطاني روجرهاردي " أن مسيرة بلند الحيدري تعكس الكثير من سمات الحياة في العراق ، سواء الأدبية أو السياسية ، فقد انصهر في اتجاهات استهدفت تحقيق ديمقراطية في بغداد والتعامل مع تعددية تبرز قسمات الثقافة الإنسانية العامة ... إن شعر الحيدري يكشف عن الطموحات العربية والانكسارات المختلفة التي حدثت خلال نصف قرن ... وقد تركت مسيرة المنفى بصماتها على شعره الذي بدا حزيناً مهموماً في السنوات الأخيرة وهو يتابع مشاهد الانكسارات في العراق ... وقد تركت تجربة السجن بصمات واضحة على شعره الذي عمق من ارتباطاته بالإنسانية ، هذا الرجل الذي حارب بالشعر التخلف والطائفية "[٢].

وكما يقول محمد سعد العوضي: " ما بين "خفقه الطين" وحتى "دروب في المنفى" رسم الحيدري شخصية شعرية لذاته لم يقصدها قدر ما عاناها ، فهو دون سواه من الرواد انكفأ على ذاته متأملاً ... اختزن في أشعاره أسئلة العصر الكبيرة من "نيتشه" حتى "إليوت" ، ومن "بودلير" حتى "ديستوفسكي" ... عاش بين مرحلة الأحلام الكبيرة رغم الانكسارات الأكبر ، ثم مرحلة سقوط وتهاوي الأحلام إلى درجة التبدد"[٣] ، " وهو كردي من العراق وعراقي في المنفى وغريق بين المسافتين"[٤] ،"هو شاعر الغربة والمنفى بامتياز ، تعبّد لهما بصمت وخشوع ورتّل على أرصفة

---

(١) جريدة الأهرام العدد الصادر بتاريخ ١٩٩٩/١٠/١٠ من مقال للأستاذ/ فاروق شوشة .

(٢) الأهرام الدولي العدد الصادر بتاريخ ١٩٩٦/١٠/٢٨ .

(٣) مجلة أكتوبر العدد الصادر بتاريخ ١٩٩٦/٩/١.

(٤) مجلة الوسط العدد(٢٣٧) والصادر بتاريخ ١٩٩٦/٨/١٢صـ٥٣.

التشرد مزامير الشوق والحنين لوطن هو خشبة خلاصه وصخرة انتحاره على حد سواء.... كان يحاول أن يطفئ حرائق الدم وأن يلملم شظايا الأحلام المكسورة "[1] .

تلك نبذة عن مسيرة الشاعر العراقي بلند الحيدري في تجربته الشعرية ، تُلقي أضواء علي تلك المسيرة ، والتي اختار البحث منها دراسة الصورة والموسيقى ؛ لكونهما الجانبين الأكثرين تفرداً في الشعر الجديد .

(١) السابق صـ٥٠ .

obeikandl.com